الإعجاز القرآني
بين الرماني والباقلاني عرض وموازنة

د. صالح بن أحمد بن سليمان العليوي
جامعة شقراء

ورد البحث في ٢٩/ ٨/ ١٤٣٦هـ وقُبل للنشر في ٧/ ٢/ ١٤٣٧هـ

الإعجاز القرآني
بين الرماني والباقلاني عرض وموازنة

د. صالح بن أحمد بن سليمان العليوي

ملخص البحث

يهدف البحث إلى تعريف معنى الإعجاز في اللغة والاصطلاح، والدوافع التي أدت لظهور مؤلفات حول الإعجاز القرآني مع استعراض تاريخ التأليف في الإعجاز من القرن الثالث الهجري وحتى العصر الحديث.

وفي الفصل الأول منه: كان الحديث عن الرماني وآراؤه حول الإعجاز القرآني في كتابه: النكت في إعجاز القرآن معرفين به ومعددين أوجه الإعجاز القرآني عنده مع تبيين رأي العلماء حول موضوع الصَّرفة.

وفي الفصل الثاني منه: كان الحديث عن الباقلاني وآراؤه حول الإعجاز القرآني في كتابه: إعجاز القرآن، معرفين به مع ذكر أوجه الإعجاز القرآني عنده، والفوائد التي أفادها البحث البلاغي في كتابه، وخاصة فيما يتعلق عن البديع بمفهومه الواسع والذي يشمل أبوب البلاغة كلها وما طرح من أمثله وشواهد في ذلك.

وفي الفصل الثالث منه: تحدثت عن الموازنة بين الكتابين، من حيث طريقة العرض، والاستشهاد والنقل من الآخرين، وذكرت أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما، مع ذكر آراء بعض العلماء فيهما، وتوصلت إلى بعض النتائج ومنها:

١ـ أن أول من سمى إيجاز القصر هو الرماني.

٢ـ أن القارئ في كتاب الباقلاني لا يمل؛ لأن الباقلاني اتبع طريقة المتكلمين الذين يكثرون من إيراد التساؤلات ويجيبون عليها.

٣ـ أن الرماني لم يستشهد في كتابه إلا بالآيات، بخلاف الباقلاني الذي استشهد بالآيات والأحاديث وأقوال الشعراء والمأثور عن العرب، وهذا يدل على سعة اطلاعه، ومكانته في زمانه.

٤ـ أن هناك فرقا بين من يقول بالصَّرفة أصلاً، وبين من يعدها وجهاً من وجوه الإعجاز فقط.

٥ـ أن كلاً منهما يرى أن القرآن خارج عن ضروب الكلام المعروفة عند العرب.

٦ـ أن كلاً منهما يرى أن الإخبار عن الغيوب أحد وجوه الإعجاز عنده.

٧ـ لقد اختلف الرماني والباقلاني في القول بالصَّرفة فالأول عدها من وجوه الإعجاز، والآخر وقف في وجه من يقول بها.

٨ـ نقل الباقلاني فصلاً كاملاً من الرماني، وهو أقسام البلاغة العشرة حيث لم يشر إلى من نقله منه.

٩ـ يظهر في كتاب الباقلاني الغموض، والاستطراد، والتكرار، وعدم الترتيب للسائل، وعدم التناسق والانتظام.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا بحث بعنوان: **[الإعجاز القرآني بين الرماني والباقلاني عرض وموازنة]** وقع الاختيار عليه دون غيره لأسباب منها:

ارتباط مسألة الإعجاز بالقرآن الكريم ارتباطاً وثيقاً يتيح لي من خلال ذلك معايشة القرآن الكريم في ثنايا فصول البحث، والرغبة في الاطلاع والقراءة حول الإعجاز القرآني ومؤلفاته، ومعرفة أسرار إعجاز القرآن الكريم، وقد سرت في البحث وفق خطة شملت: مقدمة، وتمهيداً، وثلاثة فصول، وخاتمة، وثبتاً بالمصادر والمراجع.

اشتمل التمهيد على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في معنى الإعجاز لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: في الدوافع التي أدت لظهور مؤلفات حول الإعجاز القرآني.

المبحث الثالث: في تاريخ التأليف في الإعجاز من القرن الثالث وحتى العصر الحديث.

الفصل الأول، وعنوانه: الرماني وآراؤه حول الإعجاز القرآني، وقد اشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: حياة الرماني.

المبحث الثاني: آراؤه حول الإعجاز القرآني في كتابه" النكت في إعجاز القرآن ".

الفصل الثاني، وعنوانه: الباقلاني وآراؤه حول الإعجاز القرآني وقد اشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: حياة الباقلاني.

المبحث الثاني: آراؤه حول الإعجاز القرآني في كتابه"إعجاز القرآن".

الفصل الثالث، وعنوانه: الموازنة بين الكتابين، وقد اشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: طريقتهما في العرض، والاستشهاد، والنقل من الآخرين.

المبحث الثاني: الأشياء التي اتفقا فيها.

المبحث الثالث: آراء بعض الكتاب في الحكم على الكتابين.

المبحث الرابع: رأي الباحث في الكتابين.

خاتمة البحث: ذكرت فيها ملخصه، وما تحقق من نتائج، ثم ثبتاً بالمصادر والمراجع.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكتب التوفيق والسداد للجميع، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

المبحث الأول: في معنى الإعجاز لغة واصطلاحاً.

كلمة الإعجاز لغة من (أعجز)، وأعجزه الشيء إذا لم يتمكن من مجاراته، ومنه معجزة أي: شيء خارق للعادة يأتي على يد الأنبياء عليهم السلام، والمصطلح معجزة، يستخدم لكل حالة صعبة المنال إذا تم تحقيقها، وكذلك إعجاز.

يقول الإمام الرازي في هذه الكلمة: (أعجزه) الشيء فاته، و(عجّزه تعجيزاً) ثبطه، أو نسبه إلى العجز، و(المعجزة) واحدة و(معجزات) الأنبياء عليهم السلام، وهي غير المعجزة بفتح الجيم وكسرها وتعني عدم القدرة، و(العجزُ) أي: الضعف باب ضرب، و(عجِزت) من باب طرب[1].

تأتي مادة (ع ج ز) في لغة العرب لمعنيين: أخذ الإعجاز، والمعجزة من أحدهما، وهو: الضعف والعجز، تقول: عجز عن الشيء يعجز عجزاً فهو عاجز إذا ضعف، وتقول: أعجزني فلان إذ عجزت عن طلبه وإدراكه، ومنه قوله تعالى عن لسان الجن: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[3]، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[4]، يقول ابن منظور: ومعنى الإعجاز الفوت والسبق، والمعجزة: واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام الدالة على صدقهم، وسميت معجزة؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بها[5].

وفي الاصطلاح: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، فهذا يعني أن الأمر في البداية من الله تعالى إلى رسوله الكريم، ثم يتم تبليغ هذا الأمر من

الرسول الكريم إلى الناس كافة، وكون هذا الأمر خارقاً للعادة لا يعني الاستحالة؛ إنما هو فوق قدرة البشر، وإن كان في ظاهره في مقدورهم وفي مكنتهم؛ لأن أجزاءه ومفرداته مما يعرفون، وهذا التحدي لم يكن لفترة قصيرة، إنما اقترن بزمن طويل، وهو مدة ثلاث وعشرين سنة، ولقد ارتبط هذا الإعجاز بالقرآن الكريم، ويمكن أن نعتبر كل ما دار حول القرآن الكريم، من شروح وتفاسير، وتوضيحات وإرشادات تخدم غرضه، وتبين مقصده، يمكن أن تعتبر من بدايات دراسة "الإعجاز القرآني "(٦).

المبحث الثاني: الدوافع التي أدت لظهور مؤلفات حول "الإعجاز القرآني".

نقول عندما توسعت الدولة الإسلامية، وازدادت رقعتها وكثر الداخلون فيها، احتاج القوم إلى شيء من التسجيل والتوضيح، وتبيان أسرار القرآن الكريم، زيادة على ذلك أصبحت الحاجة ملحة إلى تسجيل هذه الظاهرة لصدّ هجوم المشككين في الرسالة وقيمتها من الشعوبيين وغيرهم من مثل الذين نالوا من عقائد المسلمين بالتهوين والسخرية والاستهزاء لمثل هذه الدوافع بدأت ظاهرة "الإعجاز القرآني" تأخذ نصيبها من التسجيل في أثناء البحوث والدراسات، ولم تستقل في كتب خاصة، فقد كانت بدايات تلك الظاهرة في كتب النحويين من مثل كتاب "مجاز القرآن " لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وكتب اللغويين من مثل كتاب "غريب القرآن" لابن قتيبة، وعند البلاغيين: من مثل كتابي " دلائل الإعجاز " و"أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني، وعند المفسرين: من مثل "تفسير ابن جرير الطبري" والكشاف" للزمخشري.

المبحث الثالث: تاريخ التأليف في الإعجاز من القرن الثالث حتى العصر الحديث.

كانت بداية ظهور كتب الإعجاز القرآني في القرن الثالث الهجري، فمن أوائل تلك الكتب كتاب " نظم القرآن " للجاحظ ت (٢٥٥هـ) والذي لا نعرف عنه شيئاً سوى حديث الجاحظ عنه، وإشاراته في بعض كتبه.

وفي القرن الرابع نجد كتباً كثيرة درست الإعجاز من جميع نواحيه من ذلك " البيان في إعجاز القرآن " للخطابي ت(٣٨٦هـ) والنكت في إعجاز القرآن للرماني ت(٣٨٨هـ) وإعجاز القرآن للباقلاني ت(٤٠٣هـ) والجزء السادس عشر من كتاب المغنى في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار ت(٣١٥هـ) باسم " إعجاز القرآن "، وفي القرن الخامس، جاءت دراسات عبد القاهر الجرجاني ت(٤٧١هـ) باسم " دلائل الإعجاز " ودراسة ابن حزم الظاهري ت(٤٥٦هـ) في رده على كتاب الباقلاني، وفي القرن السادس، دراسة محمد بن عمر الرازي ت(٦٠٦هـ) في كتابه " نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز " وهو تلخيص لما كتبه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه " الدلائل والأسرار "، وفي القرن السابع ظهر ابن أبي الأصبع المصري ت(٦٥٤هـ) في كتابه " بديع القرآن "، وفي القرن الثامن، برز العلوي، يحي بن حمزة ت(٧٥٤هـ) في كتابه " الطراز ".

وفي القرون اللاحقة توالت الدراسات من مثل دراسة السيوطي ت(٩١١هـ) في كتابه" معترك الأقران في إعجاز القرآن"، وفي العصر الحديث، كثرت دراسة الإعجاز القرآني من ذلك تفسير الشيخ محمد عبده "للذكر الحكيم" والرافعي في كتابه"إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " وغيرهم كثير [٧].

الفصل الأول: حياة الرماني وآراؤه حول الإعجاز القرآني في كتابه: النكت في إعجاز القرآن

المبحث الأول: حياة الرماني وتشمل: ولادته، نشأته، مكانته العلمية، كتبه ومؤلفاته.

هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، الذي ولد سنة ست وتسعين ومائتين من الهجرة بمدينة سامرا، أو ببغداد، ونشأ نشأة فقيرة واشتغل بطلب العلم، واستعان على كسب قوته بالوراقة، وأخذ اللغة والنحو على جماعة من شيوخ العلم مثل: أبي بكر بن دريد، وأبي بكر السراج، والزجاج.

وكان الرماني محباً للعلم، واسع الاطلاع، متقنا للأدب وعلوم اللغة والنحو، لذلك لقب بالنحوي المتكلم شيخ العربية وصاحب التصانيف، وكان إلى جانب ذلك ميالاً لعلوم المنطق والفلسفة والنجوم، ويبدو أثر هذه العلوم في تصانيفه وأسلوب تأليفه.

ولقد برع الرماني في علوم شتى من هذه العلوم علوم القرآن والتفسير وألف فيها، وكانت له مشاركة في الحياة العامة في بغداد، وفي أحداثها السياسية الهامة، وكان محبوباً مقدراً عند العامة والخاصة، توفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة للهجرة بعد حياة حافلة.

وللرماني مكانة عند معاصريه تتضح لنا فيما كتبه عنه معاصره أبو حيان التوحيدي إذ قرر أنه لم ير مثله قط علماً بالنحو، وغزارة في الكلام، وبصراً بالمقالات، واستخراجاً للعويص، وإيضاحاً للمشكل.

وقال عنه ابن سنان: إنه ذو مكان مشهور في الأدب وممن اعتمد عليه ونقل عنه من العلماء: ابن رشيق، وابن سنان، وابن أبي الإصبع العدواني المصري والسيوطي[٨].

ألف الرماني كتباً كثيرة نذكر منها: التفسير الكبير، والجامع في علوم القرآن، والنكت في إعجاز القرآن، وشرح معاني القرآن للزجاج، وشرح كتابي المدخل والمقتضب للمبرد، وشرح كتاب سيبويه ونكت سيبويه، وشرح الألف واللام للمازني، وكتاب التصريف، وكتاب الهجاء، وكتاب الإيجاز في النحو، وكتاب المبتدأ في النحو، وغيرها من الكتب[٩].

المبحث الثاني: الرماني وآراؤه حول الإعجاز القرآني

صاغ الرماني رسالته " النكت في إعجاز القرآن " في صورة جواب عن سؤال وجه إليه طالباً بيان النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وهو يستهل الرسالة برد هذه النكت إلى سبع جهات، هي:

١) ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.
٢) التحدي للكافة.
٣) الصّرفة.
٤) البلاغة.
٥) الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة.
٦) نقض العادة.
٧) قياسه بكل معجزة.

ومع أن الرماني رتب وجوه الإعجاز بالصورة الآنفة الذكر، إلا أنه بدأ حديثه عن البلاغة، متناسياً الوجوه الثلاثة الأولى، ليدلل على أنه مشغول بشأن البلاغة[١٠].

الوجه الأول من وجوه الإعجاز: البلاغة

يبتدئ حديثه عنها، فيقول إنها على ثلاث طبقات: عليا ووسطى ودنيا، والعليا هي بلاغة القرآن، والوسطى والدنيا بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم في البلاغة، ثم يمضي بعد ذلك فيعرِّف البلاغة بأنها:" إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صوره من اللفظ"، ثم يذكر بعد ذلك أقسام البلاغة، وهي عشرة عنده:

يبدأ بالإيجاز، فالتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

فيعرف الإيجاز بأنه: " تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى " ويشرح التعريف، ثم يذكر قسميه: إيجاز الحذف، وإيجاز القصر معرفاً لهما، وذاكراً أمثلة من القرآن الكريم، ويوازن الرماني بين قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[11] وقول العرب: " القتل أنفى للقتل " فيذكر أن النص القرآني يمتاز بأربعة أوجه:

أنه أكثر فائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن بتأليف الحروف المتلائمة، ثم يختم حديثه بذكر الفرق بين الإيجاز والتقصير، وبين الإطناب والتطويل.

ويتحدث عن التشبيه فيعرفه بقوله: " هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل "، ومن خلال التعريف يرى الرماني أن التشبيه حسي وعقلي، فالحسي كماءين وذهبين يقوم أحدهما مقام الآخر ونحوه، والعقلي نحو تشبيه قوة زيد بقوة عمرو، فالقوة لا تشاهد ولكنها تعلم سادة مسد أخرى، وترجع بلاغة التشبيه في رأي الرماني إلى ما يؤدي إليه من بيان، ويقع على وجوه أربعه: إخراج ما لا تقع عليه

الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة، إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة، مستشهداً لكل قسم بشواهد قرآنيه مما جعل جهده يمثل خطوة واسعة على طريق البحث البلاغي.

ويتحدث عن الاستعارة فيعرفها بقوله: "هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة"، ويفرق بينها وبين التشبيه ذاكراً أركانها: مستعار، ومستعار له، ومستعار منه، ويشير إلى تعريف الاستعارة البليغة بقوله:

"كل استعارة بليغة فهي جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه، إلا أنه بنقل الكلمة والتشبيه بأداته الدالة عليه في اللغة"، متبعاً دراسته بالشواهد القرآنية.

ويتحدث عن التلاؤم فيعرفه بقوله "التلاؤم نقيض التنافر"، ويقسمه إلى ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا، ويذكر بعد ذلك أمثلة من القرآن الكريم والأبيات الشعرية.

ويتحدث عن الفواصل فيعرفها بقوله: هي"حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني" ثم يعلق قائلاً: الفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، ويورد الخلاف بين العلماء في حكم تسمية ما في القرآن سجعاً ذاكراً حجج الممانعين وإجابة المجيزين في ذلك.

ويتحدث عن التجانس فيعرفه قائلاً هو: "بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة" ثم يقسمه إلى قسمين:

تجانس مزاوجة، وتجانس مناسبة، ويمثل له.

ويتحدث عن التصريف وهو على غير عادته لم يعرفه، ولكنه اكتفى بذكر قسميه: تصريف المعنى في المعاني المختلفة، وتصريف المعنى في الدلالة المختلفة، ويستشهد بما ذكر بأمثلة من القرآن الكريم.

ويتحدث عن التضمين فيعرفه قائلاً هو: " حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم أوصفه هي عبارة عنه "، ثم يذكر نوعيه: ما يدل عليه الكلام دلالة الإخبار، وما يدل عليه الكلام دلالة قياس، ويذكر لذلك أمثلة.

ويتحدث عن المبالغة، فيعرفها قائلاً هي:" الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة"، ثم يذكر وجوهها وهي:" التعبير بصيغة تدل على المبالغة، استخدام الصيغة العامة في موضع الخاصة، إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة، إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة، إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة، حذف الأجوبة للمبالغة، ويستشهد على ما ذكر بأمثلة من القرآن الكريم.

ويختم حديثه عن البلاغة بذكر باب البيان فيعرفه قائلاً هو: " الإحضار لما يظهر به تمييز الشيء من غيره في الإدراك"، ويقسمه إلى أربعة أقسام: كلام، وحال، وإشارة، وعلامة، ويدلل على ذلك بأمثلة من القرآن الكريم(١٢).

الوجه الثاني من وجوه الإعجاز: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.

بدأ الرماني حديثه بقوله:" أما توفر الدواعي، فيوجب الفعل مع الإمكان لا محالة في واحد كان أو جماعة" ثم يذكر دليلاً على ذلك مفاده؛ لو أن إنساناً توفرت الدواعي فيه إلى شرب ماء بحضرته من جهة عطشه واستحسانه لشربه وكل داعٍ يدعو إلى مثله، وهو مع ذلك ممكن له، فلا يجوز ألا تقع شربة منه حتى يموت عطشاً لتوفر

الدواعي، فإن لم يشربه مع توفر الدواعي له دل ذلك على عجزه عنه، فكذلك توفر الدواعي إلى المعارضة بالنسبة للقرآن فلما لم تقع دل على أنه معجز[١٣].

الوجه الثالث من وجوه الإعجاز: التحدي للكافة

يقول الرماني في هذا الوجه " وأما التحدي للكافة فهو أظهر في أنهم لا يجوز أن يتركوا المعارضة مع توفر الدواعي إلا للعجز عنها "، والصحيح أن هذين الوجهين ـ أعني الثاني والثالث ـ لا يعدان من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وإنما هما من الدلائل التي تثبت إعجازه، لأن أي معجزة يشترط لها شرطان، التحدي بالمعجزة للكافة، وتعذر معارضتها بمثلها، فهذان الشرطان لا بد من توفرهما في سائر المعجزات، وكذا في القرآن الكريم، لكنهما لا يعتبران من أوجه إعجازه الخاصة[١٤].

الوجه الرابع من وجوه الإعجاز: الصَّرفة.

يبدأ الرماني حديثه عن هذا الوجه بتعريفه فيقول " وأما الصَّرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة؛ وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة" وفي هذا دلالة على أنه ناقل عن غيره، وتابع له يدل على ذلك قوله" وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر.

منها للعقول"، ومما يفيد البحث ويثريه أنه أوضح مذاهب العلماء وأقوالهم في عد الصَّرفة وجهاً من وجوه الإعجاز، أو عدم عدِّها مورداً رأي العلماء حول هذه القضية، حيث انقسموا إلى ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: ذهبت إلى القول بأن الله صرف العرب عن معارضة القرآن، وقد كان في قدرتهم أن يعارضوه، ويأتوا بمثله لولا أن الله حال بينهم وبين هذا

الغرض، فصرف همهم عن منافسته ومباراته على الرغم من شدة الدوافع الداعية لذلك؛ كالتقريع بالعجز وتسفيه العقول وذم الآلهة والآباء، فصار العائق عن معارضتهم للقرآن أمراً خارجاً عن ذات القرآن، وكان على رأس هذه الفرقة، إبراهيم بن سيار، الشهير بالنظام ت (٢٢٤هـ) فهو أول من جاهر بهذا القول وأعلنه، ودعاء إليه، ودافع عنه.

الفرقة الثانية: ذهبت إلى القول بالصَّرفة وعدت الصَّرفة وجهاً من وجوه الإعجاز، فهي متابعة للفرقة الأولى؛ لكن مضمون كلامها يختلف عن قولها، فممن نحا هذا المنحى الجاحظ في كتابه المفقود" نظم القرآن"فعنه يقول في أحد كتبه" وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلى في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعَّان، فلم أدع فيه مسالة لرافضي، ولا لحديثي ولا لحشوي ولا لكافر مياد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة "[١٥].

الفرقة الثالثة: اتجهت اتجاهاً آخر وهو معارضة القول بالصَّرفة بتاتاً، ممن نحا هذا المنحى الخطابي في كتابة" بيان إعجاز القرآن" فهو يقول: إن قوماً ذهبوا إلى أن العلة في إعجازه الصرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت المعارضة مقدوراً عليها، إلا أن صرف الله لهم عنها لما كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات، ثم يورد رأيه بقوله:" إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[١٦] فأشار في ذلك إلى أمر طريقة التكلف والاجتهاد وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصَّرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها "[١٧].

وممن أخذ بهذا القول الباقلاني في كتابه: "إعجاز القرآن" نلحظ ذلك في حديثه عن الصَّرفة حيث يقول: "على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم وعجيب الرصف، لأنهم لم يتحدوا إليه ولم يلزمهم حجته، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصِّرفة ظاهر البطلان"[١٨].

وهكذا تبين لنا بعد استعراض مذاهب العلماء حول القول بالصَّرفة، أن أصح هذه الأقوال هو القول الثالث لمطابقته لظاهر الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة وتابعيهم.

الوجه الخامس من وجوه الإعجاز: الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة.

بدأ هذا الوجه وختمه بذكر الآيات التي ورد بها الخبر الصادق عن الأمور المستقبلة، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١٩] حيث يعلق الرماني بقوله: "فكان الأمر كما وعد من الظفر بإحدى الطائفتين العير التي كان فيها أبو سفيان، أو الجيش الذي خرجوا يحمونها من قريش، فأظفرهم الله عز وجل بقريش يوم بدر على ما تقدم به الوعد"[٢٠].

الوجه السادس من وجوه الإعجاز: نقض العادة.

يقول الرماني في هذا الوجه: إن القرآن الكريم قد جاء بطريقة في التعبير خارجة عما اعتاده العرب، فأنواع الكلام عندهم، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، وطريقة القرآن تغاير هذه الطرق كلها، ولها منزلة تفوق به كل طريقة.

الوجه السابع من وجوه الإعجاز: قياسه بكل معجزة.

يعني به أن المعجزة في جوهرها إنما تكون في أمر خارج عن العادة، وفي عجز الناس عن معارضته، وبهذا المقياس فإن القرآن الكريم معجزة سبيله في ذلك سبيل فلق البحر، ثم يعرض تساؤلاً مفاده " لعل السور القصار ممكن للناس معارضتها " فيجيب: بأن التحدي قد وقع بها فلم يخص بالطوال دون القصار[٢١].

وهنا نصل إلى نهاية المطاف عند الرماني بعد استعراضنا لكتابه، ويحق لنا أن نسجل له هدفه الأصيل، وهو الكشف عن البلاغة القرآنية، وإبراز دلائل إعجازها، والذي بدأ واضحاً في حديثه عن أبوب البلاغة العشرة، وما قدمه من شواهد قرآنيه، ونكت بلاغية، وموازنات بين النصوص رحمه الله رحمة واسعة وجزاه خير الجزاء.

الفصل الثاني: الباقلاني حياته وآراؤه حول الإعجاز القرآني في كتابه: إعجاز القرآن

المبحث الأول: اسمه ولقبه وكنيته ومذهبه، مشائخه وتلاميذه، تصانيفه، وفاته.

هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني البصري، ولد عام ثمانية وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، وهو من أهل البصرة وسكن بغداد، يتبع مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ويؤيد اعتقاده، ويناصر طريقته، كان في علمه أوحد زمانه، موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب، كثير التطويل في المناظرة عند الجماعة.

مشايخه وتلامذته:

سمع الحديث في بغداد من أبي بكر بن مالك القطيعي، وأبي محمد بن ماسي، وأبي أحمد الحسين بن علي النيسابوري، وقد أخذ علم النظر عن أبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي صاحب الأشعري.

تصانيفه:

صنف الباقلاني في الرد على الرافضة، والمعتزلة، والخوارج، والجهمية، فمن كتبه إعجاز القرآن، والانتصار، وكشف الأسرار الباطنية، والملل والنحل، ومناقب الأئمة، ونهاية الإيجاز في رواية الإعجاز، وهداية المسترشدين في الكلام، والإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به.

وفاته:

توفي القاضي أبو بكر الباقلاني آخر يوم السبت، ودفن يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة، سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد رحمه الله تعالى، وصلى عليه ابنه الحسن،

ودفنه في داره بدرب المجوس ثم نُقِل بعد ذلك، فدفن في مقبرة باب حرب، والله أعلم بالصواب[٢٢]، يقول عنه صاحب الوفيات: كان في علمه أوحد زمانه، انتهت إليه الرياسة في مذهبه وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب وكان كثير التطويل في المناظرة، مشهوراً بذلك عند الجماعة[٢٣].

المبحث الثاني: الباقلاني وآراؤه حول الإعجاز القرآني.

ذكر في مقدمة كتابه: " إعجاز القرآن " بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله أن القرآن الكريم" كتاب يتضمن صدق متحملة ورسالة تشمل على تصحيح قول مؤديها، بَيَّن فيه سبحانه أن حجته كافية هادية لا يحتاج مع وضوحها إلى بينة تعدوها أو حجة تتلوها"، ثم يقول أيضاً " ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواماً، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم صلى الله عليه وسلم برهاناً، ولمعجزته ثبتاً وحجة لا سيما والجهل ممدود الرواق..."، ولقد اشتكى الباقلاني من تقصير العلماء في البحث حول إعجاز القرآن، فهو يقول: إن بسط القول في الإبانة عن وجه معجزته أحق بكثير من الذين صنفوا من القول في الخبر ودقيق الكلام في الإعراض وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمس والاشتغال به واجب[٢٤].

ثم يلتمس العذر لأولئك العلماء قائلاً " وقد يعذر بعضهم في تفريط يقع منه فيه، وذهاب عنه؛لأن هذا الباب ما يمكن إحكامه بعد في التقدم في أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المأخذ"، ثم ذكر بعد ذلك أن الجاحظ ألف كتاباً وأسماه " نظم القرآن " لكنه لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى، ويظهر لنا أن الباقلاني قد تحامل على الجاحظ، ولعل

تفسير ذلك أن الجاحظ من رؤوس المعتزلة، والباقلاني من رؤوس الأشاعرة، ومعلوم مابين المذهبين من خلاف.

ويعتبر كتاب: " إعجاز القرآن " للباقلاني من أهم الكتب وأنضجها التي تتحدث عن قضايا الإعجاز القرآني، وهو في الوقت ذاته من المصادر البلاغية الأساسية، التي أسهمت في تحديد مسار البلاغة.

إن القضايا البلاغية، ومباحثها المتعددة تختلط في الكتاب بالقضايا الكلامية اختلاطا متوازنا، فتنفرد القضايا البلاغية ببعض الفصول، وكذلك الفصل الطويل الذي خصصه للحديث عن البديع من الكلام، وذلك في الفصل الأخير عن" وصف وجوه البلاغة " الذي يتتبع فيه وجوه البلاغة العشرة، التي سبق أن أوردها الرماني في كتابه: "النكت في إعجاز القرآن"

وتنفرد القضايا الكلامية ببعض فصول الكتاب، كذلك الفصل الذي عده في أول الكتاب عن: أن نبوة النبي صلى الله عليه وسلم معجزتها القرآن، والبعض الثالث من فصول الكتاب شركة بين القضايا البلاغية والقضايا الكلامية، كالفصل الذي كتبه عن"جملة وجوه إعجاز القرآن" حيث يحصر الإعجاز القرآني في هذا الفصل في مجموعة وجوه، بعضها كلامي، وبعضها بلاغي، والذي يهمنا هو التعرف على المباحث البلاغية في كتابه "إعجاز القرآن" ومدى تمثلها لطبيعة عصره، وأن نتعرف على إسهاماتها في تطوير البحث البلاغي من ناحية أخرى، ونظرة فاحصة في الفصل الذي عقده الباقلاني في" جملة وجوه إعجاز القرآن" نجد أنه حدد وجوه الإعجاز في ثلاثة وجوه أساسية: ينقلها عن أساتذته الأشاعرة:

أولها: إخباره الصادق عن الغيوب،الأمر الذي يخرج عن طوق البشر واستطاعتهم.

وثانيها: إخباره عن قصص الماضيين وسِيَر الأمم الخالية منذ عهد آدم عليه السلام، وحتى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم على الرغم من أمية الرسول صلى الله عليه وسلم، وعدم معرفته شيئاً من كتب المتقدمين، وقصصهم وأخبارهم.

وثالثها: نظمه البديع، وتأليفه العجيب، وبلاغته المتناهية التي يعجز البشر عن محاكاتها.

بيد أن الباقلاني لا يقف طويلا أمام الوجهين الأولين، بل يوجه جل عنايته إلى الوجه الثالث"البلاغي" حيث يحاول بطريقته الخاصة – طوال الكتاب – أن يثبت تميز الأسلوب القرآني، والبلاغة القرآنية على أسلوب البشر وبلاغتهم، وينهج في ذلك نهجاً جديداً مغايراً للمناهج التي انتهجها السابقون في إثبات الإعجاز البلاغي للقرآن.

فهو يرفض فكرة إثبات الإعجاز البلاغي للقرآن عن طريق ما فيه من بديع، وذلك لأنه على حد تعبيره:" لا سبيل إلى معرفة إعجاز القران من البديع الذي ادّعوه في الشعر ووصفوه فيه، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة،ويخرج عن العرف بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به، والتصنع له، كقول الشعر ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة، وله طريق يُسلك ووجه يقصد وسلم يُرتقى فيها إليه"[٢٥] أي: أن البديع ببساطة لا يخرج عن طوق البشر، فلا يعجز أي إنسان أن يأتي في كلامه بتشبيه، أو استعارة، أو طباق؛ لأن البديع في حد ذاته غير معجز، وإنما المعجز هو الصورة الباهرة التي وجد عليها في القرآن، واتساقه مع سائر

النظم القرآني اتساقا عجيباً ورائعاً، بينما نجد أن الشعر والنثر البشري على يحتوي على التشبيه. البليغ، أو الاستعارة الجيدة ولكن يوجد إلى جوارها التعبير الساقط، واللفظ المبتذل، وهذا ما أجهد الباقلاني نفسه طوال الكتاب لإثباته.

والباقلاني يستخدم مصطلح البديع بمفهومه العام الشامل الذي كان متعارفاً عليه في عصره، فالبديع عنده يشمل كل المباحث والفنون البلاغية، أي: أنه يضم مباحث علوم البلاغة الثلاثة - التي لم تكن في عصره – قد تحددت وتمايزت واستقلت، وهي: البيان، والمعاني، والبديع، فهو مثلا يرى أن الاستعارة والتشبيه من البديع، وهما كما نعلم أصبحا – فيما بعد – من أهم مباحث علم البيان، وهو يعتبر المساواة وبعض صور الإطناب من البديع، ونحن نعلم أنهما أصبحا من موضوعات علم المعاني.

وهو يعتبر أن مجموعة من الصور البديعية التي استقرت فيما بعد تحت عنوان البديع، مثل المطابقة والتجنيس، ورد الأعجاز على الصدور وغيرها.

إن موقف الباقلاني من قضية المحسنات البديعية لم يكن أقل نضجا وتفتحا من موقفه من قضية وحدة العمل الفني فهو لا يفتأ يلح على انتقاد هذه المحسنات إذا لم يقتضها المعنى، ويستلزمها السياق الفني، أي: أنه يعد هذه المحسنات أدوات فنية تعبيرية،تكتسب قيمتها الفنية من الدور التعبيري الذي تؤديه، فإذا لم تؤد دورا في العمل الأدبي كانت عيباً من العيوب، وليست مزية من المزايا.

وكما يرفض الباقلاني فكرة التوصل إلى إثبات إعجاز القرآن عن طريق ما فيه من بديع، فإنه يرفض أيضا فكرة التوصل إلى إثبات إعجاز القرآن عن طريق أقسام البلاغة العشرة التي حددها الرماني، حيث عقد فصلا بعنوان" فصل في وصف وجوه

البلاغة " لـخَّص فيه أقوال الرماني الذي يشير إليـه – وإن كـان لا يصـرح باسمـه – حيث يقول " ذكر بعض أهل الأدب والكلام أن البلاغة على عشرة أقسام"[٢٦].

وبعد أن ينتهي من تلخـيص آراء الرمـاني حـول هـذه المباحـث، يشـير إلى أن البعض يرى أنه من الممكن التوصل إلى إعجاز القرآن من هذه الوجوه، بيد أنه يرفض هذا الرأي، ثم يقرر أن هذه الوجوه العشرة تنقسم إلى قسمين:[٢٧]

قسم يمكن الوقوع عليه والتعمّل له، ويُدرك بالتعلم،فما كان كذلك فلا سـبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به.

أما القسم الثاني فهو: ما لا سبيل إليه بالتعلم والتعمّل من البلاغـات، فـذلك هو الذي يدل على إعجازه.

ويضرب لذلك مثلا، بأننا لو قلنا: بأن ما في القرآن من تشـبيه معجـز في ذاتـه، فسوف يعترض علينا بما في الأشعار من تشبيهات رائعة، ويمثل لذلك بما في شعر ابـن المعتز من تشبيه بديع يشبه السحر.

وينتهي الباقلاني من ذلك، إلى أن مثل هذه الوجوه البلاغة ليسـت معجـزة في حد ذاتها، وإنما المعجز في هـذه الوجـوه هـو أولاً: حسـنها البـالغ وسموها،وثانيهـا: ارتباطها واتساقها مع بقية الكلام، على نحو بالغ الروعـة والتكامـل، بحيـث لا يحـس القارئ بأي قدر من التفاوت البلاغي، في هذا الكلام الربـاني، الـذي يضـارع بعضـه بعضاً في البلاغة والفصاحة، والباقلاني يحصر الوجه البلاغي للإعجـاز القرآنـي أي: بديع نظمه في وجوه عشرة، بعضـها يرجـع إلى القـرآن في جملتـه، وبعضـها يرجـع إلى بعـض أسـاليبه، وبعضـها يرجـع إلى مفرداتـه، وبعضـها يرجـع إلى حروفـه. وإن كان لا يصنف هذه الوجوه العشرة على النحو التالي: فمما يرجـع إلى جملتـه،

كونه خارجًا عن المألوف من كلام البشر، والمعروف من تنظيم خطابهم، فليس هو بالشعر، ولا بالنثر،وليس هو بالسجع ما هو معروف

للبشر من أجناس الكلام، وهو يبذل جهدا كبيرًا في محاولة إثبات مخالفة القرآن في جملته لجنس الكلام البشري.

ومما يرجع إلى جملته أيضا، أنه لم يعهد للعرب كلام يشتمل على ما في القرآن من فصاحة وبلاغة، ومعان في مثل طول القرآن،وإنما عرفت لهم مقطوعات نثرية قصيرة، وقصائد شعرية معدودة لم تخل من نقص وعيب.

ومما يرجع إلى جملته كذلك: أنه على تعدد أغراضه ومراميه من قصص ومواعظ وأحكام، وترغيب وترهيب، لا يتفاوت في بلاغته، فهو دائما على درجة واحدة من البلاغة السامية، بينما نجد أن الشعراء والأدباء المجيدين، إنما يجيدون في بعض الأغراض دون سواها، فالذي يجيد في المدح لا يجيد في الهجاء مثلا،والذي يبرع في الخطب لا يبرع في الحكم والأمثال، ونحو ذلك.

وأما ما يرجع إلى أساليبه، فيذكر من ذلك أن القرآن الكريم، قد اشتمل على كل الأساليب البلاغية،التي تنبني عليها أجناس الكلام البشري، من إيجاز وإطناب، ومجاز وحقيقة، واستعارة وتصريح، كل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم، في الفصاحة والإبداع والبلاغة.

ويذكر من ذلك أيضا أن بلاغته لا تتفاوت في الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، ولا من طريقة من طرق القول إلى طريقة أخرى، ويذكر من ذلك – أخيرًا – أننا إذا أخذنا آية قرآنية ووضعناها في ثنايا أي كلام، نظمًا كان أو نثرا، فإنها تكون هي واسطة العقد في هذا الكلام" كالدرة التي ترى في عقد من الخرز "على حد تعبيره.

وأما ما يرجع إلى مفرداته، فمن ذلك أنه استعمل بعض المفردات في معان ومدلولات جديدة، لم تكن مألوفة في البيئة العربية قبل الإسلام، ومن ذلك أيضا بُعده عن المفردات المستكرهة الثقيلة على السمع.

وأما ما يرجع إلى حروفه، فهو أن في القرآن ثمان وعشرين سورة افتتحت بحروف مقطعة من الحروف العربية الثمانية والعشرين، وقد اشتملت هذه السور على أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء، أي نصف حروف الهجاء، وهذه الحروف الأربعة عشر اشتملت على نصف كل قسم من الأقسام التي انقسمت إليها حروف العربية، حيث اشتملت على نصف حروف الهمس ونصف حروف الجهر، كما اشتملت على نصف حروف الحلق، ونصف حروف الإطباق، ونصف الحروف الشديدة الانفجارية، وهذا التنظيم والتقسيم البديع، هو بدون شك وجه من وجوه الإعجاز الناصعة في القرآن الكريم.

وواضح لنا أن القاسم المشترك بين هذه الوجوه هو مخالفة البيان القرآني لكلام البشر، وهذه هي القضية الأساسية التي شغل الباقلاني نفسه على امتداد صفحات كتابه وهو في سبيل إثبات هذه القضية يعمل إلى تحليل بعض النماذج الأدبية الرائعة، التي اتفق الجميع على بلاغتها، ليبين ما فيها من عيوب تعبيرية، ويحلل في مقابل ذلك آيات وسورًا من القرآن، يبين ما فيها من بلاغة لاتتفاوت ولا تهبط.

وفي سبيل تفضيل الأسلوب القرآني على الأسلوب البشري أجهد الباقلاني نفسه في تمحل العيوب في نماذج الشعر التي اختارها، ومع ذلك كان يصدر أحكامه عن ذوق نقدي بارع جعله يجرؤ على هذه المهمة الصعبة، فقد كان من بين النماذج التي اختارها وبيان ما فيها من عيوب معلقة امرئ القيس، وقصيدة البحتري المشهورة

هذا وقد تناثرت خلال الكتاب مجموعة من الآراء البلاغية والنقدية الدقيقة، من مثل نظرته إلى ضرورة وحدة العمل الأدبي، وموقفه من قضية المحسنات البديعية، فالباقلاني موفق على قدر من النضج والتبلور، فيما يتصل بموضوع وحدة العمل الأدبي، وقد تجلى هذا الموقف في أكثر من موضع في الكتاب، وبأكثر من صورة.

موقف الباقلاني من المحسنات البديعية:

الفصل الثالث: في الموازنة بين الكتابين

المبحث الأول: طريقتهما في العرض، والاستشهاد، والنقل عن الآخرين.

يبدأ الرماني حديثه عند كل باب بتعريفه، ثم يحدد مجاله، ويبدأ بسرد تقسيماته، ثم يتبعها بالأمثلة، وهو يركز في الشواهد على الآيات القرآنية، وبعض أقوال العرب، كما أنه في نقله عمن سبقه لا يشير إليه إلا ما ندر.

أما الباقلاني، فهو يبدأ حديثه عند كل باب بتساؤل، ثم يبدأ بالإجابة على ذلك التساؤل، وقد نجد في الباب أكثر من تساؤل، ويتصف كتاب الباقلاني وأسلوبه بالتماسك، حتى إنك لا تحس بطوله، ومما يلحظ عليه كثرة تقسيماته، والتكرار في بعض أبوابه، ولمذهبه أثر كبير في كتابه، وفي عرضه للاستشهاد يتصف كتاب الباقلاني بالتنوع بين الآيات القرآنيه، والأحاديث النبوية، وأقوال العرب وأشعارهم، وفي نقله ممن سبقه نجد أن الباقلاني يكثر من ذكر "ذهب أصحابنا" ويقصد بهم الأشاعرة وهو في نقله يشير إلى من سبقه، ولكنه في باب "أقسام البلاغة العشرة" التي ذكرها لم يشر إلى من نقل عنه أقصد: الرماني، والذي يظهر أن سبب ذلك اختلاف المذهبين بينهما.

المبحث الثاني: الأشياء التي اتفقا فيها.

١ـ السبب الذي ألفا كتابيهما من أجله هو سؤال سائل.

٢ـ اتفقا على أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود وجميع كلامهم، فالقرآن جاء بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة.

٣ـ عقد الرماني والباقلاني فصولاً في نفي الشعر والسجع من القرآن؛ لأنه من كلام العرب ومن أساليبهم، وقد تميز الباقلاني عن الرماني في إطالة الحديث هنا، وإيراده أمثله وشواهد كثيرة.

٤ـ اتفق الرماني والباقلاني في أن الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية أحد وجوه الإعجاز عندهما، وكذلك في ذكر أقسام البلاغة العشرة حيث أفاد الباقلاني من الرماني دون الإشارة إليه.

المبحث الثالث: آراء بعض الكتاب في الحكم على الكتابين.

يقول الدكتور/ شوقي ضيف بعدما استعرض كتاب الرماني:" وواضح أنه أضاف في حديثه عن البلاغة إضافات جديدة إلى من سبقوه، فقد حدد بعض فنونها تحديداً نهائياً ورسم لها أقسامها رسماً دقيقاً "[٢٨].

كما تحدث الدكتور/ شوقي ضيف عن رأيه في كتاب الباقلاني بقوله:" وواضح مما سبق أن الباقلاني لم يزد في كتابه عن شرحه أو قل بعبارة أدق عن محاولة شرحه لما قاله الجاحظ من جمال النظم القرآني وما قاله الرماني من أنه يردُّ تفسير هذه المرتبة بوجوه البديع التي عدها ابن المعتز وقدامة وأبو أحمد العسكري وغيرهم، كما ردَّ تفسيرها بوجوه البلاغة التي ذكرها الرماني إلا أن يلاحظ في ذلك كله النظم وروعة التأليف، فالمدار قبل كل شيء على الصياغة والنظم.

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إنه أول من هاجم في قوة نظرية إعجاز القرآن عن طريق تصوير ما فيه من وجوه البديع، وأيضا وجوه البلاغة التي أحصاها الرماني، ومن هنا تأتي أهميته إذ أعد للبحث عن أسرار في نظم القرآن من شأنها حين توضح توضيحاً دقيقاً أن تقف الناس على إعجازه، وإن كنا نلاحظ ـ في الوقت نفسه ـ أنه لم يستطع

أن يصور شيئاً من هذه الأسرار، إذا ظلت الفكرة عنده غامضة، وظلت مستورة في ضباب كثيف"[٢٩].

كما يبدي الدكتور/ عبدالغني بركه رأيه بكتاب الرماني قائلاً:" وبعد فمن حق الرماني علينا بعد أن استعرضنا رسالته أن نسجل له الجهد الكبير الذي بذله والخطوات الواسعة التي خطاها على طريق تقدم التصنيف البلاغي وتطور بحوثه، وتنسيق أبوابه ومصطلحاته كما رأينا ثم نسجل له أيضا أنه في كل ما كتب لم ينس هدفه الأصيل وهو الكشف عن البلاغة القرآنية، وإبراز دلائل إعجازها، والذي بدأ واضحاً في حرصه الشديد على أن يقدم لكل باب من أبواب البلاغة العشرة، شواهده من القرآن الكريم، وأن يلح ما فيها من أسرار ونكات بلاغية"[٣٠].

وعلق الدكتور/ عبد الغني بركه على كتاب الباقلاني بقوله: " فقد أبلى الباقلاني رحمه الله بلاءً حسناً، وكان رائداً في جوانب تفرد بها حين رأى أن الإعجاز لا يُستفاد من صور البديع وألوان البلاغة منفردة وإنما يستفاد من النظم ككل متميز بخصائص لا يشاركه فيها غيره، وحين أثبت أن القرآن لا يتفاوت في بلاغته مهما اختلف أسلوب عرضه، وحين ننظر إلى السورة ككل متكامل مترابط يحقق غاية محددة وإذا كنا لم نرتض بعض آرائه، فإن ذلك إنما إلى طبيعة هذه الأمور التي تحتمل وجهات النظر "[٣١].

المبحث الرابع: رأي الباحث في الكتابين.

لا شك أن كتاب الرماني خدم المباحث البلاغية خدمة كبيرة حيث كان من مفاتيح الكتب التي هيأت البلاغة للنضوج بعد ذلك على يدي عبد القاهر الجرجاني، ومن جاء بعده، وكانت جهود الرماني تتمثل في تقسيم البلاغة إلى أقسام عشرة،

ووضع ضوابط لكل قسم مع ذكر أمثلة من القرآن على كل قسم، والوقوف عندها وتحليلها، واستحداث مصطلحات جديدة مثل "إيجاز القصر" حيث أثرت التسمية عنده إضافة إلى ذلك لا ننسى هدف الرماني، وهو الكشف عن البلاغة القرآنية وإبراز دلائل إعجازها، نلحظ ذلك في الموازنات بين النصوص القرآنية، وما قيل في معناها من كلام العرب، أقول بعد ذلك يكفي للرماني أن أقسام البلاغة العشرة التي وضعها هي موجودة حتى الآن مع ضوابطها التي ذكر، مع تغيير يسير في ذلك.

وعلى الرغم من صغر حجم الكتاب، فإن الرماني أضاف في حديثه عن البلاغة إضافات جديدة إلى من سبقوه، فحدد بعض فنونها تحديداً نهائياً، ورسم لها أقسامها رسماً دقيقاً، وترك أثراً بأرزاً في مسار التأليف البلاغي، وتأثر به كثير من البلاغيين والنقاد والمتكلمين الذين جاؤوا بعده، فقد نقل عنه أبو هلال العسكري في كتابه: "الصناعتين الكتابة والشعر" فصلاً كاملاً عن التشبيه.

كما أن الباقلاني ـ رحمه الله ـ أبلى بلاءً حسناً وله من الجهد الشيء الكثير، ولقد زاد الباقلاني في كتابه على ما قاله الجاحظ في جمال النظم القرآني، وما قاله الرماني في وجوه البديع، ويكفيه زيادة ما قلت بعد ذلك إلا أنه يلاحظ في ذلك كله النظم وروعة التأليف، فالمدار قبل كل شيء على الصياغة والنظم، ويكفيه أيضا أنه أول من هاجم في قوة نظرية إعجاز القرآن عن طريق تصوير ما فيه من وجوه البديع التي ذكرها الرماني، ولقد أثبت الباقلاني أيضا أن القرآن لا يتفاوت في بلاغته مهما اختلف أسلوب عرضه، وحيث نظر إلى السورة ككل متكامل مترابط يحقق غاية محددة.

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً على ما وفق وسدد والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقد اشتمل البحث على مقدمة أوضحت فيها: أسباب اختيار الموضوع، وخطة البحث، وتمهيد اشتمل مبحثه الأول: على معنى الإعجاز في اللغة والاصطلاح، وفي مبحثه الثاني: ذكرت الدوافع التي أدت لظهور مؤلفات حول الإعجاز القرآني، وفي مبحثه الثالث: ذكرت تاريخ التأليف في الإعجاز من القرن الثالث وحتى العصر الحديث.

وفي الفصل الأول والذي حمل عنوان "الرماني وآراؤه حول الإعجاز القرآني في كتابه: النكت في إعجاز القرآن" أوردت في مبحثه الأول: ترجمة عن الرماني اشتملت على: ولادته، ونشأته، ومكانته العلمية، وكتبه، ومؤلفاته، وفي مبحثه الثاني: آراؤه حول الإعجاز القرآني في كتابه "النكت في إعجاز القرآن" وفيه استعرضت وجوه الإعجاز عنده مبتدئاً بالبلاغة وأقسامها، ووقفت عند الحديث عن الصَّرفة، وذكرت رأي العلماء في ذلك، وفي الفصل الثاني والذي يحمل عنوان: الباقلاني وآراؤه حول الإعجاز القرآني في كتابه: إعجاز القرآن، ترجمت للباقلاني في المبحث الأول بترجمة اشتملت على: اسمه ولقبه، وكنيته، ومذهبه، ومشايخه، وتلامذته، وتصانيفه، ثم وفاته، وفي المبحث الثاني آراؤه حول الإعجاز القرآني في كتابه "إعجاز القرآن" فذكرت حديثه عن أهمية إعجاز القرآن في مقدمته، وتحدثت عن وجوه الإعجاز عنده، والفوائد التي أفادها البحث البلاغي في كتابه، وخاصة حديثه عن البديع بمفهومه الواسع، والذي يشمل أبواب البلاغة كلها وما طرح من أمثله

وشواهد في ذلك، وفي الفصل الثالث وعنوانه: في الموازنة بين الكتابين، حيث بينت طريقته الكتابين في العرض، والاستشهاد والنقل، من الآخرين، وفي المبحث الثاني أوجزت ما اتفقا عليه، ثم أوردت آراء بعض العلماء في الحكم على الكتابين، وختمت الفصل بذكر رأيي في ذلك.

ثم خاتمة أوضحت فيها ملخص البحث ونتائجه، وأخيراً ثبت بالمصادر والمراجع والنتائج التي خرجت بها في هذا البحث ومنها:

١ـ أن أول من سمى إيجاز القصر هو الرماني.

٢ـ أن القارئ في كتاب الباقلاني لا يمل؛ لأن الباقلاني اتبع طريقة المتكلمين الذين يكثرون من إيراد التساؤلات ويجيبون عليها.

٣ـ أن الرماني لم يستشهد في كتابه إلا بالآيات، بخلاف الباقلاني الذي استشهد بالآيات والأحاديث وأقوال الشعراء والمأثور عن العرب، وهذا يدل على سعة اطلاعه، ومكانته في زمانه.

٤ـ أن هناك فرقا بين من يقول بالصَّرفة أصلاً، وبين من يعدها وجهاً من وجوه الإعجاز فقط.

٥ـ أن كلاً منهما يرى أن القرآن خارج عن ضروب الكلام المعروفة عند العرب.

٦ـ أن كلاً منهما يرى أن الإخبار عن الغيوب أحد وجوه الإعجاز عنده.

٧ـ لقد اختلف الرماني والباقلاني في القول بالصَّرفة فالأول عدها من وجوه الإعجاز، والآخر وقف في وجه من يقول بها.

٨ـ نقل الباقلاني فصلاً كاملاً من الرماني، وهو أقسام البلاغة العشرة حيث لم يشر إلى من نقله منه.

٩. يظهر في كتاب الباقلاني الغموض، والاستطراد، والتكرار، وعدم الترتيب للسائل، وعدم التناسق والانتظام.

هذا وإني لأرجو أن أكون قد قدمت شيئاً تجاه هذا الموضوع الذي يخدم القرآن، وتجاه هذين العالمين اللذين كانا فاتحة الطريق لي في قراءآتي في كتب الإعجاز، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

الهوامش والتعليقات:

١. (الرازي ١٩٨٥: ٤١٣).
٢. (الجن: ١٢).
٣. (العنكبوت: ٢٢).
٤. (الشورى:٣١).
٥. (ابن منظور مادة: عجز).
٦. (الإتقان في علوم القرآن ٤/ ٣ ــ أبو علي: ٢١).
٧. (أبو علي: ٣١).
٨. (الرماني: ٨).
٩. (الحموي: ٥/ ٢٨٠ والخطيب: ٢/ ١٦).
١٠. (الرماني: ٩٦).
١١. (البقرة ١٧٩).
١٢. (الرماني: ٧٧).
١٣. (الرماني: ١٠١).
١٤. (عتر: ٢٢٨).
١٥. (بركة: ٥٧).
١٦. (الإسراء ٨٨).
١٧. (الخطابي: ٢٠).
١٨. (الباقلاني: ٤٥).
١٩. (الأنفال ٧).
٢٠. (الرماني: ١٠٢).
٢١. (الرماني: ١٠٣).
٢٢. (الباقلاني: ١٢).
٢٣. (ابن خلكان: ٤/ ٢٦٩).

٢٤. (الباقلاني: ٢١).

٢٥. (الباقلاني: ١٣١).

٢٦. (الباقلاني: ٢٦٨).

٢٧. (الباقلاني: ٢٧٦).

٢٨. (ضيف: ١٠٧).

٢٩. (ضيف: ١١٤).

٣٠. (بركه: ١٠٠).

٣١. (بركه: ١٦٦).

ثبت المصادر والمراجع

١ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٢ـ ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر وصادر، بيروت.

٣- أبو علي، د/ محمد بركات حمدي، في إعجاز القرآن الكريم، مؤسسة الخافقين، الأولى.

٤ـ الباقلاني، القاضي أبو بكر، إعجاز القرآن، تحقيق الشيخ/ عماد الدين حيدر، الكتب الثقافية، الأولى.

٥ـ بركه، د / عبد الغني محمد سعد، الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره، مطابع المختار الإسلامي، الأولى.

٦ـ الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، طباعة مرجليوث، الثانية.

٧ـ الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر.

٨ـ الخطيب، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، دار الكتب العربي، بيروت لبنان.

٩. الرازي، محمد أبو بكر عبدالقادر، ١٩٨٥م، مختار الصحاح، مؤسسة علوم القرآن.

١٠ـ الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر.

١١- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م.

١٢ـ ضيف، د/ شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، الخامسة.

١٣ـ عتر، حسن ضياء الدين، بينات المعجزة الخالدة، دار النصر، الأولى.